

النفس الإنسانية بين الخير والشر



قال الله تعالى: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنْ نَتَّخِذَ مَا خَلَقْنَا كُفْرًا، أَوْ نَسُوا الْإِنْسَانَ الَّذِي خَلَقْنَا لَسَمِيمًا) (المؤمنون/ 115)، (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ) (الأنبياء/ 16). الإسلام يعطي أهمية كبيرة للمبادئ الكريمة لتتغلغل في أعماق النفس لتستقر هذه التعاليم ولتصبح جزءاً من النفس الإنسانية.. فالإنسان لم يُخلق بدون معنى وفائدة، وإنما خُلِق ليُزرع الخير في كل مكان ويسعى دوماً لتنقية نفسه من شوائب الشر.

والإسلام يعتبر أن النفس الصالحة هي المقصود لكل إصلاح؛ إذ أن القاضي النزيه يكمل بعدله نقص القانون الذي يحكم به. أمّا القاضي الجائر فهو يستطيع الميل بالنصوص المستقيمة ويجنح بأهوائه؛ من هنا كان الإصلاح النفسي الدعامة الأولى لتغليب الخير في هذه الحياة.. فإذا لم تصلح النفوس سادت الفتن حاضر الناس ومستقبلهم. لذلك يقول الله سبحانه وتعالى: (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٌ خَالِقٌ) (الذاريات/ 59) لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمِهِمْ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمُ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ) (الرعد/ 11)، ويقول تعالى معللاً أسباب هلاك الأمم الفاسدة: (كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِئِن نَّزَّلْنَا بِكَ آيَاتٍ مِّن دُونِهَا لَنُوقِظَنَّ النَّاسَ وَلَئِن لَّا يَنبَغِ لَكَ بِالنَّاسِ فَتَافِكٌ) (الأنفال/ 52-53).

إن في النفس فطرةً طيبة تهفو إلى الخير وتُسَرُّ بإدراكه، وتكره الشر وتحنن من ارتكابه، وترى في الحق امتداد وجودها وصحة حياتها؛ ولكن هناك إلى جانب ذلك نزعات طائشة تشرذم بها عن سواء السبيل وتزيين لها فعل ما يعود عليها بالضرر.. هاتان النزعتان موجودتان في الإنسان تتنازعان أمره، ومصيره معلق بالنزعة التي يستسلم لها. قال تعالى: (وَنَفْسٍ سَوْءًا هَاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا) (الشمس/ 7-10). وقد دفع الإسلام المسلم لأن يتخلص من الوسواس التي ترادوه وتحاول السقوط به، قال تعالى: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ

عَلَيْهِمْ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (الروم/ 30)، غير أن كثيراً من الناس تثقل بهم أهواؤهم فتجرح بهم إلى مكان سحيق فيخسرون أنفسهم ويخسرون حياتهم ومستقبلهم لأن مغريات الحياة كثيرة وجذابة.

وأول ما يلفت الإسلام نظر المرء إليه أن الجري مع الهوى والانصياع لوساوسه التي لا تنقضي لن يشبع النفس ولن يرضى الحق.. قال تعالى: (زُرِّيْنَا لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ) (آل عمران/ 14)، ومن ثم حذر القرآن من اتباع الأهواء المحرمة فيقول تعالى: (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الدَّيْنَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) (ص/ 26).

إن حاجات النفس الإنسانية الحلال ليست سيئة، وقد لاحظ القرآن الكريم هذه الناحية فنص صراحةً على إباحة الرغائب السليمة للنفس، وترك لها فرصة التوسع الطيب، وعدّ التدخل بالخطر والتحريم والتضييق على النفس في هذه الدائرة الكريمة قريناً لعمل السوء والفحشاء. قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ عَنِ الْأَرْضِ فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّ نَاسًا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (البقرة/ 168-169).

أجل إن حظر الحلال الطيب قول على بلا علم وهو أخو السوء والفحشاء اللذان يأمر بهما الشيطان. فالإسلام يكره أن تعالج الغرائز بالكبت العنيف، ويشجع لها المنهاج الوسط بين الإفراط والتفريط. نعم، إن الإسلام يحترم الفطرة الخالصة، ويحذر من الأهواء الجامحة الفاسدة ويقوم في وجهها السدود. والعبادات التي أمر بها الإسلام هي تدعيم للفطرة وترويض للهوى. ولن تبلغ هذه العبادات تمامها وتؤدّي رسالتها إلا إذا كانت كلها روافد لتكوين الخلق العالي والمسلّم المستقيم.